

طرق الخلاص من

[الذنوب]

و تكفير السيئات



سبحان

لفضيلة الشيخ
الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد بن علي فركوس
استاذ بعلية العلوم الاسلامية بجامعة الجزائر



دار الموقع

www.ferkous.com
edition@ferkous.com

تهاون، ويوطنها على العمل ضمن مراقبة الله وعلمه ومحاسبته نفسه، إذ هما من طرق إصلاحها وتأديبها وتطهيرها، فالزام المسلم نفسه بمراقبة الله تعالى حتى يتم لها اليقين بأن الله تعالى عليها رقيب؛ فهذا معنى إسلام الوجه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، كما أمر بمحاسبة النفس على ما قدمت لغيرها المنتظر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

هذا، وعلى المسلم أن يجاهد نفسه بالتأديب جهاداً متواصلاً حتى تطمئن نفسه وتطيب ليكون أهلاً لمحبة الله ورضاه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

هكذا درب الصالحين من هذه الأمة يسعون جاهدين إلى الخلاص من الذنوب والمعاصي بالتوبة والاستغفار والاستكثار من الأعمال الصالحة، ويسارعون في الخيرات، ويحاسبون أنفسهم على تقريطها ويجاهدونها على التقوى وينهونها عن سوء والهوى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٥٠] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ [٥١] [النازعات].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا.



الجزائر في: ٢٠ رجب ١٤٢٦ هـ
الموافق ل: ٢٥ أغسطس ٢٠٠٥ م

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن سعادة المؤمن في دنياه وآخره تكمن في مدى تأديبه نفسه وتزكيتها، إذ ما تطهر عليه نفسه هو حسنة الإيمان والعمل الصالح، وإن شقاءه منوط بفسادها وخبثها، إذ ما تخبث به وتتدسّس هو سيئة الكفر والمعاصي والذنوب، **قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» (١)** وَقَدْ حَاطَ مَنْ دَسَّاهَا (٢) [الشمس]، لذلك فالواجب على المؤمن أن يحمل نفسه على الآداب المزكية لها، المطهرة لخبثها وأدرانها، كما أن عليه أن يجنبها كل ما يدسّيها من الأقوال والأفعال، ويُفسدها من سيئ المعتقدات، تلك هي الذنوب التي لا يسلم منها بنو آدم، فما في جبلتهم يأبى أن لا يقع منهم ذنب، ولو أرادوا أن لا يقع منهم ذنب أصلاً فَقَدْ راموا ما ليس لهم إلا من عصمه الله من الذنوب مِمَّنْ أُعْطِيَ النُّبُوَّةَ من بني آدم، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (١)، وقد بينت الشريعة الفراء الطُرُق الشرعية التي يجب أن تتبّع للتخلص من الذنوب والآثام لإصلاح النفس وتطهيرها لتصبح أهلاً لكرامة الله سبحانه وتعالى ورضاه، وهي محصورة في أربعة مكفّرات:

أولها التوبة: فالتوبة بداية العبد التقى ونهايته، لا تفارقه ولا يزال فيها إلى الممات، وحقيقة التوبة: الندم على ما سلف من الذنوب، والإقلاع عنها في الحال، والعزم على أن لا يعاودها في المستقبل، والتحلل من الآدمي إن كانت في حقه، والتوبة فرض دائم على كل مسلم على قدر استطاعته، وهي واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها

(١) أخرجه مسلم في «التوبة» (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في معصية صغيرة ولا كبيرة، إذ هي عنوان الفلاح وطريقه، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٣١)** [النور]، فعلق الله تعالى الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، ثم أتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، فكان المعنى أنه «لا يرجو الفلاح إلا التائبون»، والتوبة التي تعالج الذنب وتمحو أثره هي التوبة النصوح، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» [التحریم: ٨]**، تلك هي التوبة المقبولة، يتردد صاحبها بين خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل مع إيمان في الطاعات (٢).

ثانيها الاستغفار: وهو طلب المغفرة بالقلب واللسان والجوارح، وهو يتضمّن العزم الجازم على ترك ما يُغضب الله والإقبال على ما يحبه.

هذا، والمغفرة تُذكر في مقابلة العذاب، لأنّ العذاب يحصل بسبب الذنوب، والمغفرة من الله مانعة من عذابه، ولا يكون ذلك إلا بصحة العزم على الإقبال على الله عز وجل وترك الذنوب والآثام، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» (٧٥)** [البقرة]، وإذا كانت التوبة أبلغ في الدلالة على رجوع العبد من معصية الله تعالى إلى طاعته والقيام بأمره، فإن الاستغفار أبلغ في الدلالة على الاعتراف بالذنب والندم عليه وطلب إزالة أثره، لذلك كثيراً ما يُقرن بين الاستغفار والتوبة، **قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ» [المائدة: ٧٤]**، وقال تعالى: **«وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْسِكْكُمْ مِّنْهُنَّ حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» [هود: ٣]**.

(٢) انظر: اختلاف عبارة العلماء في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً في «تفسير القرطبي» (١٨/١٩٧، ١٩٩).

غير أن الذنوب - وإن كانت محل مغفرة - إلا أنه يُستثنى منها الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لذلك كان التوحيد أساس المغفرة وسببها الأعظم، ومن فقد التوحيد فقد المغفرة، ومن جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيها الله بقرابها مغفرة، على أنه موكول إلى مشيئة الله وفضله: إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنِ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا لَا تَيْتِكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةٌ» (٢).

هكذا تتصاغر الذنوب أمام نور توحيد الله سبحانه وتعالى، فعاقبة المذنب من الموحدين الجنة وعدم الخلود في النار، فلا يلقي فيها كما يلقي الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فمن وحّد الله واستغفر وتاب وقام بشروط التوحيد أوجب ذلك له مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ونجا من النار بالكلية، قَالَ نَبِيُّ ﷺ: «قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [الزمر]، ذلك لأن المغفرة المطلقة من الله سبحانه وتعالى تتضمن إزالة أثر الذنوب والوقاية من شرّها.

هذا، ومن ثمرات الاستغفار: اطمئنان القلب وانسراح الصدر وجلاء الهمم والغم، والاستبشارُ برحمة الله ورضوانه، ومن ثمرات الاشتغال به شغل لسانه عن غيره، وانبعاث معاني الصفح والعفو وحسن الخلق في نفسه.

ثالثها الاستكثار من الحسنات: ذلك لأن السيئات تُغفر بالحسنات

(٢) أخرجه الترمذي في «الدعوات» (٢٥٤٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٩/١).

لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود]، ولقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مِنْهُنَّاءً ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان]، فالحسنات تكفر كثيرًا من السيئات ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۖ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ كَرَّمَ ۖ﴾ [طه]، ومن ظواهر هذه النصوص القرآنية يتبين أن «الحسنات» شاملة بإذهاب عموم السيئات - صغيرها وكبيرها -، غير أن السيئة الكبيرة تحتاج إلى حسنة مثلها لتكفيرها ومحوها كالشرك لا يكفره إلا التوبة منه والدخول في الإسلام، إذ الإسلام يجب ما قبله، وعليه فالاستكثار من الحسنات أمر مرغوب فيه لكونه مذهبًا للسيئة، لكن بشرط عدم الاتكال عليها للوقاية من الوقوع في المظالم والذنوب، ذلك لأن السيئة في مقابل الحسنة تأكلها أو تنقص أجرها فلا ينتفع بها صاحبها ولا تبلغ به الدرجات العلى، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: «الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ أُمِتِيَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (٤). فالحديث صريح في أن

(٤) أخرجه مسلم في «المساقاة» (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحسنات تذهب السيئات - صغيرها وكبيرها - وتقطعها، ومن جهة أخرى تنقص السيئات الحسنات وتأكلها حتى إذا فنيَت الحسنات أخذ الرجل بذنوبه وطرح في النار.

هذا، ولا تعارض مع قوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»^(٥). فإن مضمون الحديث خاص بما تكفره الصلوات الخمس والجمعة ورمضان من الصغائر، أما النصوص المتقدمة فأعم من محتوى هذا النص فهي شاملة للكبائر أيضاً، ولا منافاة في العمل بمقتضى العام والخاص كما هو مقرر أصولياً.

ومن الحسنات المكفرات: الجهاد في سبيل الله، والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على القضاء، والحب في الله والبغض في الله، والتطوع في الصلاة والصدقة والصيام، وغير ذلك من الأعمال الصالحات.

هذا، والاستكثار من الحسنات ضرب من ضروب التوبة والاستغفار، لذلك تقرر الأعمال الصالحة بالتوبة في العديد من الآيات القرآنية، فلا تعارض بين وجوب التوبة والاستغفار مع القول بتكفير السيئات بالحسنات، لأن التوبة والاستغفار محلها القلب واللسان والجوارح، والعمل الصالح جزء منها، لذلك فمن استغنى بظاهر الحسنات عن حقيقة التوبة والاستغفار فقد أسقط عن نفسه فرض التوبة والاستغفار، ورضي قلبه به واعتقده، وهذا لا شك في بطلانه من جهة المعتقد والعمل، وأنه من الكبائر العظيمة وطريق من طرق الكفر، لأنه يتضمن الإيمان ببعض الشريعة والكفر ببعضها، وقد جاء في الحديث: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٦).

(٥) أخرجه مسلم في «الطهارة» (٢٢٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم في «الأفضية» (١٧١٨)، من حديث عائشة ﷺ، وأخرجه

البخاري معلقاً (١٠٧/٩).

وعلى التائب أن يناسب بين الحسنات والسيئات فلا يترك الفرائض والواجبات بدعوى فعل الحسنات المكفرات، فإن تكفير ترك الفرائض والواجبات يحصل بتداركها والقيام بها إن لم يسقط وجوبها أو يتعذر تداركها، أما الاستمرار على تركها مع الاتكال على تكفيرها بالعمل الصالح من غير جنسها فذاك سبيل المغرورين ممن خدعهم الشيطان بمكره وصدّهم عن سبيل المتقين.

رابعها الأذى الذي يلحق المؤمن: فالأذى الذي يصاب به المؤمن في نفسه وماله وأهله هو من مكفرات الذنوب والخطايا، كما ثبت في «الصحيحين» قوله ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى أَلْهَمَ يَهُمُّهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(٧)، وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: لَمَّا نَزَلَتْ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ»^(٨) [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال النبي ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدُّوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوْ الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا»^(٩)، وثبت أيضاً من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا»^(١٠)، والأجر والثواب يكون بقدر المصيبة والنصب، فقد ثبت من حديث عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى قَدَرٍ نَصَبِكَ وَنَفَقَتِكَ»^(١١).

ففي طرق الخلاص من الذنوب والخطايا أمل عظيم في فضل الله العليم، حيث يبعث في نفس المسلم الأمل المشرق، ويحملها على فعل الخيرات وترك المنكرات، ويدفعها إلى الطاعة من غير

(٧) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٨) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٩) أخرجه البخاري في «المرضى» باب وضع اليد على المريض (٥٦٦٠)، ومسلم

في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧١)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(١٠) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٧٢٣)، وصحّحه الألباني في «صحيح

الجامع» (٢١٦٠).